



مَنْ تَوْصِيَاتٍ وَمَوَاقِبٍ لِمَا لِيَاك لِلرَّهْبَانِ فِي الْقَدْسِ وَضَوَاهِيهَا

بحث قدم في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين ١٩٨٠م

من ٤ : ٩ جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ - ١٩ : ٢٤ نيسان ١٩٨٠م

الأستاذ : ردكسي بن زائد العزبزي

العالم كله يضطرب، لما تمارسه، وتعلنه اسرائيل بشأن القدس العربية، زاعمة ان القدس عاصمة ابدية لها. متجاهلة الحق العربي، والاسلامي، في هذه المدينة المقدسة، التي انشأها العرب (اليوسيون) (١)، وقد ظل اسمها (بيوس) نسبة الى هؤلاء العرب، الذين قدموا من (نجد) ولم يقم بها يهودى واحد، بشهادة التوراة. (٢)

مع هذا، فسلطات الاحتلال، تناسى مبادئ القانون الدولى، الذى ينظم علاقة الاحتلال بالأراضى المحتلة ومكائنها. وتدعى ان القدس يهودية!.

وبينا تناضل الأمة العربية، شعوبا، وقيادات، في سبيل اعادة القدس، الى عربيتها الأصلية، والأصيلة، تروج الصهيونية العالمية، الدعايات المضللة، التى تصور العرب والمسلمين، قوما متعصبين، حاقدين سفاحين، مدمرين للإنسانية، وتكر على العرب والمسلمين سماحتهم الدينية. وتصورهم تلك الدعاية، قوما ليس في استطاعتهم ان يحترموا للناس حقوقهم الإنسانية، ومعتقداتهم الدينية. تصورهم مغريرين، هدامين متعطشين للدماء. وتدعى ان القدس مدينة يهودية، منذ أن وجدت، في حين ان التوراة نفسها، تشهد بعكس ما يدعون. وقد نص على ذلك سفر القضاة، في الفصل التاسع عشر، كما ذكرنا. (٣)

لا أريد أن أذهب الى صحف التاريخ، اتصيد المراجع، والأسانيد التى تثبت عربوية القدس، فكتب التاريخ مملوءة بالحجج الدامغة، ويكفى ان نعرف ان (اليوسين) بناة (القدس) كانوا عربا، وان (القدس) كانت تعرف بأسمهم، (بيوس) وأنها كانت عنوان حضارة، تنجل في ابنتها، الفخمة، واسباب معيشتها، ورفاهية سكانها، كما ذكر قبل هذا.

وقبل انعقاد هذا المؤتمر، وقعت في يدى، مجموعة من النوصيات والمواثيق، التى منحها سلاطين المماليك للربان في القدس، وضواحيها، فوجدت منها، ما يبين الصورة الحقيقية للنساع الاسلامى، في ما يخص معتقدات الناس الدينية.

فرايت أن البحث يحتاج الى موازنة بين موقفين متناقضين، يستطيع الباحث من

خلالهما ان يدرس الأعمال النفسية للإنسان العرفى الذى فطر على التسامح: «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر». يذكر لنا تاريخ الكنيسة، انه قبل مايقرب من ألفى سنة، - وكانت القدس خاضعة لحكم (رومية) ظهر السيد المسيح - وبشر بالديانة المسيحية وحارب المرابين، والذين يتكسون بالدين اليهودى القديم. (١)

فجاء هؤلاء، وطالبوا بيلاطس النبطى ان يحاكم المسيح، وطالبوا بصلبه، قائلين: «دمه علينا، وعلى أولادنا!» وبروى لنا التاريخ، ان (بيلاطس النبطى) - الحاكم الرومانى - لم يتمكن من انقاذ المسيح من ايديهم، فأمر بأن يجلد، وبصلب، لكنه غسل يديه، قائلا: «انا برىء من دم هذا الصديق!».

لم أقصد ذكر هذه الحادثة، ان اكرر مايتعلمه تلامذة الصفوف الابتدائية الأولى، لكنى اذكر هذه الواقعة، لأرسلها بواقعة تاريخية حدثت بعدها بستائة وست وثلاثين سنة، يوم وقف الخليفة العادل عمر الفاروق ليذ على صراخ اليهود الذى تردده الأجيال، : «دمه علينا وعلى أولادنا!». بعد أن طمأن سكان القدس بكتاب الأمان الذى منحهم اياه يوم وفد عليه وفدهم، وهو فى (الجابية)، ومن (الجابية) سار الى (القدس) ليسلمها قائما.

نص كتاب الأمان الذى منحه الفاروق لأهل (ايبياء) القدس:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله (عمر) أمير المؤمنين، أهل (ايبياء) من الأمان، اعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملثها:

انه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينقص منها، ولا من حيزها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن به (ايبياء) معهم أحد من اليهود، وعلى أهل (ايبياء) أن يعطوا ماجزية كما يعطى أهل (المدائن) وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم، فإنه آمن على نفسه، وماله.

حتى يبلغوا مأماتهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل (ايبياء) من

الجزيرة، ومن أحب من أهل (البلقاء) ان يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويخل مبيعهم
وصلبهم، فأنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم، وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن
كانت بها من أهل الأرض، قبل مقتل (فلان). فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما عمل أهل
(البلقاء) من الجزيرة، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم
شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى هذا الكتاب عهدا لله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، اذا اعطوا
الذين عليهم من الجزيرة.

شهد على ذلك : (خالد بن الوليد) و (عمرو بن العاص) و (عبد الرحمن بن عوف)
و (معاوية بن ابي سفيان) وكان ذلك سنة ١٥ هجرية - (وقيل بل كان سنة ١٦ -
الكامل لابن الأثير، ج ٢ الصفحة ال ٤٩٩ دار صادر بيروت، موسوعة العتبات
المقدسة، قسم القدس، ج ١).

فلما سلمت القدس للفاروق، ودخل كنيسة القيامة، وحين وقت الصلاة، قال
للبطريك (صفرونيوس): «اريد الصلاة!» فقال له: «صل موضوعك» فامتنع، وصل على
الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا. فلما قضى صلاته، قال للبطريك: «لو صليت
داخل الكنيسة، اخذها المسلمون من بعدى، وقالوا: «هنا صل (عمر)». وكتب لهم ان
لا يجمع على الدرجة للصلاة، وان لا يؤذن عليها. وهكذا، طبق (عمر) كتاب الأمان
حرفيا.

وهنا تبرز حقيقة، تفرض على الباحث أن يوازن، بين موقف (عمر): «لو صليت
داخل الكنيسة، اخذها المسلمون بعدى، وقالوا: هنا صل عمر».

وبين دمه علينا، وعلى اولادنا !.

وماتفعله اسرائيل من اعتداء على حقوق الأتسان، ومن تحد لكل المواثيق، والأعراف
الدولية.

اما وقد اوردت نص كتاب الأمان الذي اورده كل كتب التاريخ، والمواثيق، المعترف

بها، فلا بد لي من ذكر وثيقة في بدي وأنا بحث عن النسخة الأصل لكتاب الأمان الذي منحه الفاروق لأهل (البياه) - القدس - وهذا نصها:

تسليم المدينة المقدسة (أوشليم) الى الخليفة (عمر بن الخطاب): من قبل (صفرونيوس) سنة ٦٣٥ مسيحية الموافقة ١٥ هجرية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اعزنا بالاسلام، وأكرمنا بالأيمان، ورحمنا بنبيه (محمد) ﷺ وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات، والفرق، ولف قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، ومكن لنا من البلاد، وجعلنا أحراراً متحابين. وأحمدوا الله، وعباد الله، على هذه النعمة.

هذا كتاب عمر بن الخطاب، لعهد، وميثاق، أعطى الى البيطرك المحجل المكرم وهو صوفريوس بطرك الملة الملكية، في (طور الزيتون) بمقام (القدس الشريف) في الاشتغال على الرعايا القسوس، والرهبان، والراهبات، حيث كانوا، وأين وجدوا. وان يكون عليهم الأمان، وان الدمى اذا حفظ احكام الذمة، وجب له الأمان، والصون منا، نحن المؤمنين، والى من يتولى بعدنا، ويقطع عنهم اسباب جوانحهم، كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة، والخضوع، وليكن الأمان عليهم وعلى كتائبهم، ودياراتهم، التي بايديهم، داخلا، وخارجا وهي (القمامة) و (بيت لحم) مولد عيسى - عليه السلام - كنيسة الكبراء، والمغارة ذى الثلاثة ابواب: قبل، وشمال، وغرق، وبقيّة اجناس النصارى، الموجودين هناك، وهم: (الكرح) و (الحبش) والذين يأتون للزيارة، من الأفرنج و (القط) و (السرمان) و (الأرمن) و (النساطرة) و (اليعاقبة) و (الموارنة) تابعين للبيطرك المذكور، ويكون متقدما عليهم، لانهم أعطوا من حضرة النسي الكريم والحييب المرسل من الله، وشرفوا بختم يده الكريم، وأمر بالنظر اليهم والأمان عليهم. كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم، أكراما لمن احسن اليهم. ويكونوا معافا من الجزية، والغفر، والموجب. ومسلمين من كافة البلاد، في البر، والبحور، وفي دحوظهم لـ (القمامة)، وبقيّة دياراتهم، لا يؤخذ منهم شيء، واما الذين يقبلون الى الزيارة، يؤدي النصارى الى البيطرك درهم وثلاث من الفضة.

وكل مؤمن ومؤمنة، يحفظ ما أمرنا به، سلطانا، ام حاكم، ام والى. بحري حكمه في

الأرض، غنى أم فقير. من المسلمين المؤمنين والمؤمنات، وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام: (عبد الله) و (عثمان بن عفان) و (سعد بن عوف)، وبقية الأخوة الصحابة الكرام، فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا، ويعمل به، وابقاه في يدهم، وصلّى الله تعالى على سيدنا (محمد) وآله وأصحابه، والحمد لله رب العالمين. حسينا الله ونعم الوكيل في العشرين من شهر ربيع الأول سنة خماس عشر للهجرة النبوية، وكل من قرى مرسومنا هذا من المؤمني وخالفه من الآن وإلى يوم الدين، فليكن لعهد الله ناكثا، ولرسوله الحبيب باغضا.

ملاحظات : وهنا لابد لنا من وقفة عند كتاب الأمان هذا. الذي اعترف به المماليك، واتخذوه اساسا لتوصياتهم، ومواقفهم التي منحوها للربهان، في القدس وضواحيها:

- ١- لغة الكتاب، لا تشبه لغة العصر الراشدي، ولا بحال من الأحوال!
- ٢- حروف الكتابة معجمة، في حين ان الأعجام، لم يعرف قبل العصر الأموي.
- ٣- كتاب الأمان الأصيل، الذي مرت بنا صورته، لم يذكر اية طائفة، من طوائف النصارى. لأن الأمان، منح لأهل (اهلباء) - القدس - بلا تفرق بين الطوائف، ولم يستثن، سوى اليهود، لأنه لم يسمح لهم بأن يقيموا في القدس.
- ٤- الكتاب الذي في يدينا صورة عنه، يسمى الطوائف، ويجعلها تابعة للبطريرك (صفرونيوس)، ولعل بعض تلك الطوائف، لم يكن قد نشأ في عهد (صفرونيوس).
- ٥- بعض الألفاظ التي وردت في هذا الكتاب لم تعرفها اللغة العربية الا في زمن متأخر جدا، مثل:

أ) مرسوم، بمعنى عهد، أو ميثاق، أو أمر سلطاني.

ب) فليعتمد - اي فليتخذ اساسا لما أمر به السلطان - فهذا الاصطلاح، لم تعرفه اللغة قبل الدور التركي، ودور المماليك.

ج - تسمية (ابلياء) بـ (القدس الشريف) لم تكن معروفة في العصر الراشدي، اسمها (بيوس) - نسبة الى بنائها البيوسيين - العرب الذين بنوها. أما تسميتها بـ (القدس الشريف) فقد وردت متأخرة، اى في عهد الترك، العثمانيين.

د - قدم في هذا الكتاب، التاريخ المسيحى، وآخر التاريخ الهجرى، وهو أمر لم يكن مألوفاً. والتاريخ الميلادى، لم يرد في كتاب الأمان - اصلا - ولا ورد له ذكر في أية دولة مسلمة.

٦- وأكثر من ذلك كله، ان كتاب الأمان، صدر في الجابية، وسلم لوفد أهل القدس. وهو أمان خاص بـ (القدس) وأهلها، ويتميز من كل عهد أو أمان منح لغير (القدس) لكن هذا الأمان حفظ في البطريركية التى كان يرأسها البطريرك (صفرونيوس).

الأخطاء اللغوية:

أما الأخطاء اللغوية، التى في هذا الأمان، فكثيرة، لا يمكن ان تقع من عربى، اصيل. وسنورد منها جانباً، للبرهنة على ما نقول، ليس غير:

أ (في الأشتال، على الرعايا والفسوس، لعله اراد أن يقول: وان هذا الأمان يشمل القسيسين والرعايا.

ب) ويقطع عنه أسباب جوارحهم - اراد بالجوارح كل جناحة ترتكب.

ج) وكافة زيارتهم - اراد أن يقول كل زيارتهم.

د) والمغارة ذى الثلاثة ابواب: المغارة ذات الأبواب الثلاثة.

هـ) وبقية أجناس النصارى تابعين - تابعون.

و) أعطوا من حضرة النى، وشرفوا بحم يده الكريم، وأمر بالنظر اليهم، والأمان عليهم. ولعل الأخطاء اللغوية تبيّن، اذا لاحظنا الخلط التاريخى بين النى عليه السلام وبين عمر ابن الخطاب.

ز) يكونوا معافا - يعقون.

ح) كالة البلاد - البلاد كلها.

- (ط) يودى النصرانى الى البطرك درهم وثلاث. كذا.
- (ى) وكل مومن ومومنة يحفظ ما أمرنا به سلطانا أم حاكم أم والى. كذا.
- (ك) يجرى حكمه فى الأرض غنى أم فقير ؟.
- (ل) اثبت الهمة فى كلمة (ابن) مع وقوعها بين علمية، كقولہ: (خالد ابن الوليد) وبقيہ الأسماء.
- (م) ووقع خلاف فى اسماء الشهود بين كتاب الأمان الأصل، والصورة التى فى يدنا. التى اعتمدنا فيها على أوثق المراجع العربية فقد ذكرت المراجع المعترف بها هؤلاء الشعود.

• خالد بن الوليد • عمرو بن العاص • عبد الرحمن بن عوف • ومعاوية بن أبى سفيان.

هذه الأسباب، نرانا مضطرين لاعتبار هذه الوثيقة زائفة. لكن زيف هذه الوثيقة، لا يظعن فى الحقيقة التاريخية الثابتة وهى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قد منح اهل ايليا كتاب أمان اثبتنا نصه الحرفى، كما ورد فى مجموعة الوثائق السياسية، فى العهد النبوى، والخلافة الراشدة، التى جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى، المطبوعة فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة سنة ١٩٤١م، وموسوعة العتبات المقدسة قسم القدس الجزء الأول لصاحبها الأستاذ (جعفر الخليلي) والكامل لاین الأثير ج ٢ الصفحة ٤٩٩ دار صادر، وتاريخ الأمم والملوك لاین جرير الطبرى، ج ٣ الصفحة ال ١٠٥، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

وعلى الرغم من كون هذه الوثيقة التى نقدناها زائفة، لا تمثل كتاب الأمان العمري، فان المماليك قد عاملوا الرهبان معاملة انسانية، تكذب كل الافتراءات التى كبرت للعرب، وللمسلمين بلا حساب، علما بأن هؤلاء الرهبان، لم يكونوا عربا، وكانوا من بقايا الفرنجة، الذين صبغت سيوفهم بدماء المسلمين، وجفت سيوف المسلمين بدمائهم. لكن المماليك تقيدوا بالآلة الكريمة : «وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون» سورة الأحزاب الآية ال ٩١.

من اجل هذا، ابدأ بالثبات مرسوم من (برقوق) الذى يعتبر مؤسسا لدولة المماليك (البرجية) (د) الذى توفى سنة ١٣٩٨م وقد كان برقوق السلطان الأوحى بين المماليك،

الذي كان ابوه مسلماً^(١)، فتأثر بسماحة الإسلام فحافظ على العهود، والمواثيق، وعمل
بسماحة الإسلام، باحترام معتقدات مخالفيه في الدين، وانتصر على طبيعته الحربية، التي
أباحث له ان يقتل رسل (تيمورلنك)، الذين جانبوا بمهجة رسمية. (٣٦)
صحيح ان هذه المواثيق التي صدرت عن هؤلاء السلاطين، كانت مفسدة لطبيعة
اللغة العربية، لكن الحق يجب ان يقال، ان هؤلاء المخازين الذين لم يعرفوا الا ساحات
القتال، قد برهنوا على سماحة اسلامية تستحق التقدير.

ميشاق برقوق :

بسم الله الرحمن الرحيم

مثالنا هذا، الى كل واقف عليه من المجالس السامية

برقوق

ومجالس الأمراء والاكابر الغزاة الأنصار.

يعتمد

احقاد الاسلام، بها زين الانام، اشراف الأمراء اعضاء الملوك والسلاطين الولاة والنواب
والشارين والمتصرفين بالطرقات المصرية، والبلاد الشامية ادام الله سعدهم وانجح قصدهم
يتضمن اعلامهم ان الرهبان بكنيسة (دير حجوت) بـ (القدس الشريف) انبوا أنهم
منقطعون في كنيستهم المذكورة يأكلوا الصدقة، وليس لهم رزقا به ولا معلوم وتم من البيديفة
من يتعرض اليهم بالأذية والضرر ويقطع مصانعتهم وايضا يقطع مصانعة فصلهم فلما
اضر ذلك بحالهم شكوا حالهم الى النواب بالمملكة فكتب لهم مراسيم مطلقة يمنع من
يتعرض اليه بما لاجرت به عادة من قديم الزمان وهم مستمرين على ذلك الى الآن.

ومرسومنا للمجالس السامية ومجالس الأمراء ان يتقدموا بحملهم على حكم المراسيم
الشريفة التي بأيديهم من قديم الزمان والى آخر وقت المستمرة الحكم الى آخر وقت ومنع

من يتعرض اليه من البيهية ولتفصلهم من قطع المصانعة ولا تحدث عليهم حادث لم تجر
به عادة والوصية بهم يعملون ذلك ويعتمدونه ويعمل به والله الموفق ان شاء الله عز وجل.

في تاسع عشر شوال المبارك
سنة تسعين وسبع مائة.

بالاشارة الكريمة العالية الأممية الكافلية السيفية، كافل الممالك الشريفة الاسلامية
المفروسة اعلاء الله تعالى الحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم وحسبنا الله وكفى. (٨)

وهذا مرسوم آخر من (برقوق) (٩)، عن مجموعة التوصيات والمواثيق من
الصفحة الـ ٣٤ - ٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس العالى

برقوق

المالك

الاميرى الكبيرى الذخرى الاوحدى المؤيدى

النصرى القوتى السندى مجد الاسلام والمسلمين شرف الامراء المقدمين نصر الغزاة
واجهاهدين..... عضو الملوك والسلاطين، ادام الله تعالى سعاداته وبلغه من الخير ابلغه،
موضحة لعلمه ان قصة رفعت باسم طائفة الفرنج بد (القدس الشريف) انتهوا فيها ان
الصدقات الشريفة، ثمانهم مرسوم شريف بعمارة ما تهدم وبنى من الأخشاب والرصاص
بجهد سيدنا (عيسى) عليه السلام (بيت لحم) واذا حضر بسبب العمارة خشب أو
صنف من أصناف العمارة أو ضاع فلا يتعرض احدا اليه وامتنل المرسوم الشريف وأعمل
بحسبه. وتم من يقصد الآن قطع مصانعتهم ومرسومنا للمجلس العالى ان يتقدم بحمله في

ذلك على حكم المرسوم الشريف الذي بأيديهم المستمر الحكم والعمل بحسبه وضع من
يتعرض اليهم بغير سبب.

وكف اسباب الأذى والضرر عنهم والوصية بهم ورعايتهم ويحيط علما بذلك والله
الموفق بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى.

كتب في العشرين من شوال المبارك سنة سبع وتسعين وسبع مائة حسب المرسوم
الشريف.

الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وصحبه وسلامه حسينا الله تعالى.

وهذا مرسوم ثالث من (برقوق) (١٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى المجلس العالى

(برقوق)

المالك

الأمرى الأجل الكبيرى العنصرى الأوحدى الذخرى النصرى المجاهدى المؤيدى
العلامى مجد الاسلام بهاء الأنام شرف الأمرء زين المجاهدين عمدة الملوك والسلاطين ادام
الله تعالى تأييده وتشديده توضح لعلمه المبارك ان جماعة رهبان الفرنج انهبوا منهم مقيمى
بداخل القمامة لأجل خدمة كتائبهم وهم مساكن معروفة بهم من قديم الزمان ولم تكن
جرت عادة احدا ان يعارضهم فى مساكنهم وقد فصلوا جنس الروم ان يسكنوا بمساكنهم
التي بأيديهم وبهم معروفة.

ورفعوا ايدى المذكورين عن املاكهم وبأيديهم محاضر شرعية تشهد لهم بالمساكن
المذكورة انها خادمة بأيديهم من قديم الزمان دون غيرهم ومرسومنا للمجلس العالى ان
يتقدم.

أمره المبارك بحملهم على ما بأيديهم من المحضر الشرعي الشاهد لهم بالمساكن المذكورة
ومنع جنس الروم من التعرض لهم أو لمسآكتهم مع الوصية بهم في ذلك ومراعاتهم
والأحسان إليهم ويستقر المثال الشريف بأيديهم بعد العمل به فيحيط علمه الكريم بذلك
إن شاء الله تعالى.

كتب في سابع عشر الحجة الحرام

سنة ثمان وتسعين وسعمائة

حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

والآن ننقل الـ (جقمق) الملك الظاهر، سيف الدين (١١).

لكي نعطي صورة متكاملة، عن معاملة هؤلاء المماليك، فالتسامح الذي نعم به
الرهبان وأهل الذمّة، في زمن بقوق، جاء بعده تشدد من (جقمق) إذ لم يعد يسمح
للرهبان، إذا عطب دير من دياراتهم، أن يصلحوه إلا إذا صدر بذلك مرسوم، ولم يكن
يصدر هذا المرسوم، إلا بعد أن يقضى بذلك قاضي القضاة. واليهان على ذلك هذا
المرسوم الذي ثبت نصه، كما ورد في مجموعة الوثائق.

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبه الى المجلس العالى

(جقمق)

المالك

القاضى الكبير العالمى المؤيدى الجاهدين القاضى الذخرى العزى

يمتثل الأمر الشريف

القاضى الكامل البارعى المفيدى الرفيدى الاصيل العريقى

يمتثل الأمر الشريف

اليسى الأوحدى الامينى مجد الاسلام والمسلمين شرف الروسا في العالمين فخر الامنا

جمال البلغا اوحده الأضلا زين الامائل المعتبين صفوة الملوك والسلاطين ادام الله تعالى نعمته وجدد مسرته وموضحة لعلمه ان جماعة الغارديان (١٢) والرهبان بدير صهيون به (القدس الشريف) رفعوا قصة لمواقفنا الشريفة قرأت على مسامعنا الشريفة انبوا فيها ان بدير (بيت لحم) اماكن قد تحرقت وتهدمت من كثرة الأمطار والأهوية وأنهم يخلصون من طارق يتوصل منها.

الى داخل اماكنهم ويحصل لهم بذلك الضرر وانهم اوصلوا هذه القضية بالمجلس العالي وبالمجلس العالي الاميرى الكبيرى السيفى النائب به (القدس الشريف) وكاشف (الرملة) والقضاة به (القدس الشريف) وانهم امروا المهندسين بكشف ذلك بحضور العدول وانهم مروا بعمارة ذلك على ماكان عليه أولا من غير زيادة وتلبيس اسطحته بالجس وترميمه وقطع قرطسه وانهم كتبوا بذلك محضرا ومرسوما للمجلس العالي ان يتقدم بالركوب بنفسه ويتوجه الى الدير المذكور ويكشف الأماكن المذكورة ويعمل فيها بما تقتضيه حكم الشرع الشريف ويبراه ذمة المجلس العالي عند الله عز وجل فاننا نتحقق دينه وخبره وجودته والقصد في ذلك العمل بما تقتضيه الشريعة المطهرة وكتبنا الى المجلس العالي النائب به (القدس الشريف) وماع ذلك بمعنى ذلك وذكروا في قصتهم ان من جملة حقوق الدير المذكور مكانا ملاصقا بجداره ينتفعون به في زراعة الخضروات وأنه لما قل ترداد الرهبان الى المكان المذكور للدير قديما وهو مع حقوقه والواضع اليد عليه الآن بغير حق ولا طريق شرعى فيعاد اليهم على الوجه الشرعى وذكروا في قصتهم انه اذا ورد راهب مستجد من بلاد الفرنج انه يبين الموجب السلطان مرة واحدة وأنه اذا سافر لاحضار الصدقة ثم عاد لايعطى شيئا وكذلك يس الدير لم يكن له عادة يوزن شيء قط وانه في هذا الوقت ثم من احدث عليهم حادثا ويلزمهم باعطاء ما لم تحجر لهم به عادة فيتقدم المجلس العالي ويكشف عن أمرهم قديما ويجروا في ذلك على جارى العادة في الأيام الناصرية والموبدية وذكروا في قصتهم أيضا ان لهم ترجمانا نصرانيا يسمى يوسف يتعاطى اسباب مصالحهم ويقضى حوائجهم ويخدمهم على ماجرت به العادة وقرروه الحكام من قديم الزمان وانه لم يكن له جرمة ولا جنحة ولم من يقصد استبداله بغيره ويقصد بذلك قطع مصالحتهم ويحصل لهم بذلك الضرر فيتقدم المجلس العالي بالكشف عن يوسف المذكور وان لم يكن صدر منه ذنب ولا جرمة فيستمر في ترجمتهم على عادته وقد كتبنا الى المجلس العالي السيفى النائب به (القدس الشريف) وكاشف الرملة واعلمناه بذلك كله.

فليحيط علم المجلس العالي بذلك والله تعالى يوفيه بمنه وكرمه ان شاء الله.

كتب في حادى عشر من القعدة الحرام من سنة خمسين وثمان مئة حسب المرسوم الشريف الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه حسيننا الله ونعم الوكيل.

لاحظنا من مرسوم (جقمق) انه حاول - مع كل التشدد والتضييق - ان يتقيد باحكام الشريعة، وينصوص المواثيق السابقة.

وهذا مرسوم آخر يدل على السماحة وحسن المعاملة.

ونلاحظ في هذا المرسوم بادرة جديدة، وهى ان المرسوم خلاله بالسلمة، وكأنما هو يشير الى ان هذا المرسوم تابع لمرسوم آخر صدر بالسلمة كما هى العادة.

الحمد لله
الملكى الظاهرى سنه
بعتمد

المرسوم بالامر الكريم المولوى السيدى يتقدم كل واقف عليه من المجالس العالية والأمراء الاجلاء الاكابر الولاة ونوابهم والشادين والمنصرفين بالاعمال القبلية المغروسة ادام الله سعدهم.

بتأمل

ما انباه القرديان ريس طائفة الفرنج بـ (صهبون) من ان الصدقات الشريفة شرقها الله تعالى وعظمتها شملته بتواقيع شريفة كريمة تمكنه من عمارة (بيت لحم) مهد (عيسى) صلوات الله عليه واحضار الأخشاب من البحر ومنح ضمان.

الموانى من التعرض الى الأخشاب الوارده بسبب ذلك وقد رحمتنا بتمكنه من عزل الدروب المعروفة بوادى (حسكا) لاجل احضار الخشب على العجل بسبب عمارة (مهد عيسى) صلوات الله وسلامه عليه جسما برزت به المراسيم الشريفة.

والكريمة وامتثال امرها وعدم الخروج عنها ومنع من يتعرض الى المذكور في ذلك

ومساعدته والوصية به وكف اسباب الأذى والضرر عنه فليعتمد المرسوم فيه كل واقف عليه من غير عدول عنه ولا خروج عن معناه بعد الخطأ الكريم اعلاه ان شاء الله تعالى.

كتب في رابع عشرين ربيع الآخر سنة اربعة عشر وثمان مائة حسينا الله وكفى.

وهذا مرسوم من (عشقدم) الذي كان متمسكا بما يفرضه الشرع، وبالعادات والتقاليد، فسط السلام في ربوع (مصر) ونجت تلك الدهار في زمانه من شر الأوبئة، وتنتعت برحاء وبرفاهية.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالي المولوى

(عشقدم)

السلطان الملكى الظاهرى السلى

اعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه في الآفاق وصرفه

يعتمد

ان يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من المقر والجناب الكريمين العالين الاميين الكبيين الكليل والكافل السيفيين كافل السلطنة الشريفة بالشام وحلب الهروستين أعز الله تعالى انتصارهما والجنابات والهاالس العالية السامية الكافلية السيفية نواب السلطنة الشريفة بـ (طرابلس) و (حمأة) و (صفد) و (غزة) و (القدس الشريف) وتناظر الحرمين الشريفين بها وكاشف (الرملة) و (نابلس) والأستاذ دار المتولى قبض مالى (الخرجان) والحكام وولاية أمور الاسلام بالممالك الاسلامية ضاعف الله تعالى وادام نعمتهم يدي ويوضح لعلمهم الكريم المبارك ان اغتشم الموقر الأرحس القدسي فخر طابفته وأهل ملته الرئيس بدير (صهيون) و (عين كارم) و (بيت لحم) وكبير طابفة الفرج المقيمين والواردين الى (القدس الشريف) رفعوا قصة لمواقنا الشريفة انها فيها احوالهم وسألوا صدقاتنا الشريفة ضمومهم بنظرنا الشريف وبعذلنا الشامل وان يجدد لهم مرسوما

شريفًا مطلقًا على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة من الملوك السالفة، وهم (الظاهر بيبرس) و (الحضور قلاوون) و (الناصر محمد) و (الناصر حسن) و اخوته و (الاشرف شعبان) و (الظاهر برفوق) و (الناصر فرج) و (المؤيد شيخ) وولده (المظفر) و (الظاهر ططر) وولده (الصالح) و (الاشرف برسباي) و (الظاهر جقمق) و (الأشرف ايتال) ومرسومنا الشريف ايضا يتضمن ما نذكر فيه، وهو انه:

إذا حضرت برهنية أو نحاسية أو غيرهم إلى (القدس الشريف) لأهلكوا ولا يلزموا بكلفة ولا تسفير إلا أن كان لهم اسم وإن كان على أحد من طائفة الفرنج أو من اجناس النصراني مطالبة، فلا يلزموا بها.

ولأنهم طائفة الرهبان بتسفير ولا كلفة إلا أن كان لأحد اسم وإن هلك الرئيس بدير (صهيون) أو أحد من الرهبان أو من المجران يكون موجوده للرهبان المذكورين ويمكنوا من دفن من هلك ولا يعارضوا في مآكلهم ومشربهم ويفسح لهم في شراء العنب لمشربهم إذا لم يحصل به نفع للمسلمين ويمكنوا من مشربهم ومعاشهم ونقلها من دير إلى دير ومن كنيسة إلى كنيسة على جاري عاداتهم القديمة ويمكنوا من التوجه إلى بلادهم وضرورتهم والعود إلى محلهم بترجمان، وبغير ترجمان، ولا يلزموا بقرض ولا معاملة وتمكين الرهبان من الدخول إلى قمامة عندما تفتح بغير كلفة وتمكين الرهبان بدير (صهيون) من إقامة النبيذ وتلاتين أو أربعين بقمامة واخراجهم إذا اراد واستبدالهم بغيرهم على جاري العادة ويمكنوا من تليس مساكنتهم وتليس اسطحهم لدفع الضرر من المطر على الوجه الشرعي ولا يطلب منهم غرامة ولا قطع مصانعة ولا يلزموا بما على أحد يموت من الفرنج أو البنادقة (١٥) والرهبان وغيرهم و (عين كارم) إلا برضاهم ويمكنوا من الدار المجاورة لديرهم وترميم امكانهم التي يحتاجون إليها للسكنى ولا ينقلهم أحد من الحكام (بالقدس الشريف) لا من الناظر ولا من النائب ولا الوالي ولا غيرهم ولا يقطع لهم أحد مصانعة ولا تمنع الصدقة المحضرة إليهم من بلادهم ولا يعارضهم فيها أحد من الخفر أو من الشادين باليمن، والسواحل والطرقات وغير ذلك ولا يعارضوا في جميع مزارعهم بالأماكن التي لهم بها عادة ودخولهم فيها وفعل شرايطهم واعبادهم التي اقتضاها دينهم وحلاص حقوقهم ممن يتعين في حقه وإذا حصلت عليه شكوى من (القدس الشريف) برسول من (القدس الشريف) يعطى درهم واحد فضة أو درهمين ولا يغالوا ولا يكلفوا بشيء جملة كافية.

على جاري عاداتهم القديمة وإذا اعتدى أحد من طوائف الفرنج على أحد من المسلمين

في البحر أو ألبس الألبسة الرهبانية بذلك لأنهم تركوا الدنيا واشتغلوا بعبادة الله بالدبورة
 المذكورة وإذا حصل لأحد من الرهبان من أحد من الحكام بـ (القدس الشريف) وغيبه
 ضرر وقصر الحضور إلى الأبواب الشريفة يمكن من الحضور ولا يمنع وإذا حضر أحد من
 اليبهدة لا يتعرض اليهم في بيوتهم ولا في مساكنهم ولا يقصدهم بضرر جملة كافية وإن
 لا يطلب الرهبان المقيمون بدير (صهيون) و (بيت لحم) و (عين كارم) و (القدس
 الشريف) بسبب القسايم التي كتبت عليهم ولا يلزم بها إلا القنصلية لأغبر وأنه من قصد
 من (الخرجان) والفرخ التردد إلى دير (صهيون) و (بيت لحم) يمكن من ذلك على العادة
 ولا يمنع أجهزة الدنا لهم بالحماية من الضرر والشوش والأمان والأطمئنان وكف الأذى عنهم
 وعن غلمانهم واتباعهم وأجرأتهم وأجرأتهم على جاري العوايد عملاً في ذلك بالعدل
 الشريف وإن يتقدم الكاشف بـ (الرملة) بكتابة قسايم شريفة على الخفر بـ (الرملة) و
 (بافا) بعدم معارضة الرهبان المذكورين جملة كافية على جاري عاداتهم وإن لا يفرض أحد إلى
 الرهبان الواصلين لدينا (بافا) المعروفين برهبان الخيل (١٠٠) بسهم بدير (صهيون) و (عين
 كارم) و (بيت لحم) وكذلك الترجمة بـ (الرملة) و (القدس الشريف) ولا يتعرضوا إلى
 الفرخ في ترجمة إلا أن يكون بيد من يقصد التعرض اليهم مرسوم شريف أو منشور
 بالترجمة ومن لم يكن بيده مرسوم شريف ولا منشور شريف لا يتعرض اليهم جملة كافية وإن
 يمكن غلمانهم واتباعهم من السفر حيث شاءوا من غير معارض لهم وسأل الرئيس بدير
 (صهيون) والرهبان أن لا يكرهوا على ضمان أحد من الفرخ ولا غيرهم وإن لا يلزموا بكتب
 قاسم ولا حلف حيث يشق ذلك عليهم في دينهم وأنه إذا حدث طلب بـ (القدس
 الشريف) على النصارى واليهود بسبب تكسير أو غير ذلك ولا يلزم الرئيس بالدير المذكور
 ورهبانه بشيء من ذلك وإن يعقوا من ساير المغارم والمظالم وإن يمكن الرئيس بدير (صهيون)
 من ارسال رهبانه حيث شاءوا من ساير الممالك لاستعطاء مايقوم بأودهم وإبطال ماكتب
 على رهبانه في غيبته بسبب ذلك وإذا سافر رهبانهم نحو أيهم وضرورتهم وغابوا سنتين
 وأكثر في أشغال دبرهم تكتب اسماءهم عند المباشرين بحيث أنهم إذا عادوا لا يلزموا بكلفة
 ولا موجب وإذا استبدل الرئيس رهبانا من دير برهبان (بيروت) لا يؤخذ منهم موجب على
 عادتهم وأنه إذا خرج راهب بغير إذن ربه ووقع منه شيا ناقصا فلا يجرم الرئيس ولا رهبانه
 بذلك وإذا حضر طائفه (الخرجان) والتجار والرهبان وغلمان التجار لزيارة قمامة وأقاموا بما
 عليه من الواجب يمكنون من الدخول ثلاث مرات من غير تعويق على عاداتهم ومنع من
 يقصر قطع مصانعهم بسبب ذلك وإذا حضر إلى (القدس) الشريف خاصكي أو يهدى
 أو غيرهم بسبب تكسير حجر النصارى واليهود وحصل مفرح فلا يلزم الرهبان بتكسير ولا
 كلفة وإذا توجه الرهبان إلى بحر الشريعة وغير ذلك من المزارات لا يكلفوا الخفر أو قطع

مصانعة وانه اذا حضر (جرجان) أو فرنج من البر أو البحر وحصل لهم قطع طريق عليهم
واخذ موجودهم فلا يلزم الرهبان ولا يلزموا غضبا بموجب المذكورين لا في ايام مستحق
المقر الكريم الكفيل كافل المملكة الشامية ولا في بسط السنة واذا شكاهم احد بغير حق
وغرموا شيئا يرجع على من شكاهم بذلك واذا فتحت قمامة (١٧) للتهارة وقصد حواج
كاستهم ورهبانهم الدخول لها بمكنوا من ذلك بغير كلفة الدرهم الفرد على جارى عادتهم.

لا يمكن احد من طوائف النصارى من الدخول الى اماكنهم بغير رضاهم ومنع من
يقصد ضررهم فهذا مضمون ما بأيديهم من المراسيم الشريفة وما سالوا فيه صدقاتنا
الشريفة وقد رحمتنا لهم الآن باستمرارهم عتلى ذلك حملا على حكم ما بأيديهم من المراسيم
الشريفة المتقدمة من الملوك السالفة شفى الله تعالى عهدهم حين اقتضاه الشرع الشريف
ومرسومنا لكل واقف عليه ومستمعه وناظر اليه ان يتقدموا بمنع من يحدث على المذكورين
حادث أو يجدد عليهم مظلمة وحملهم على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة المشار
اليها حيث اقتضته الشريعة المطهرة وكف اسباب الاذا والضرر عنهم ومعاملتهم بالمعدلة
الشريفة ومنع من يتعرض لهم بسوء ولا يكلفوا لما لا طاقة لهم به ولا عادة عليهم ومنع الوالى
والبلاضية (١٨)، والمشاه وغيرهم من دخول درهم وقطع مصانعتهم والتشويش عليهم واذا
دخل ريس جديد وخرج من قبله فلا يكلف احد منهما الى مفرغ ولا يلزم بكلفة ومن
اعتمد خلاف مارسمنا به من ذلك وما تضمنته مراسيم الملوك السالفة تبرز المراسيم الشريفة
باحضاره الى الابواب الشريفة عملا بالعدل الشريف والمرخ من ديوان الجيوش المنصورة
المؤرخ بمحادي عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وستين وثمانية والعمل به والوصية بهم
ومنع من يتعرض اليهم.

بغير طريق مبين قولاً و- ا- وامرا جازما والمراسيم الشريفة تؤكد عليهم في ذلك.

غاية التاكيد والاعتناد على الحفظ الشريف اعلاء حجة فيه بمقتضاه ان شاء الله تعالى.

كتب في ثامن عشرين شهر صفر المبارك

سنة تسع وستين وثمانية

حسب المرسوم الشريف.

الحمد لله وحده وصلواته على محمد واله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

إن هذا المرسوم الذى أحاط بكل شيء، حجة دامغة على أن كل ما يقال على العرب، والمسلمين، من دعايات باطلة، إنما هو زور وهذا لا يمنع أن يكون هنالك أناس لا يلتزمون بأوامر الشرع، ولا بنواهي السلطان، لكن هذا ليس حجة على العرب، والمسلمين، بل هو حجة لهم على الناس!..

بعد أن وضع لكل ذى عينين، مما تقدم أن العرب والمسلمين، هم أحق الناس بالأشرف على القدس، والأماكن التى تقدسها الأديان الكتابية، أرى من واجبي أن أقول كلمة موجزة، على نشوء دولة المماليك، الذى يكاد يكون من معجزات التاريخ، لأن نشوء هذه الدولة بفرعها:

أ - البحرية - المماليك الترك.

ب - والبرجية - والمماليك المجرس.

قد خالف كل منطق التاريخ، الذى يفرض على مؤسسى الدول التى يكتب لها الثبات، أن يستندوا إلى عصبة قوية، وتقاليد زعامية، أو تعهد عقيدة أو على حزب قوى، ومعجزة المماليك، قائمة على انهم لم يكونوا على شيء من ذلك. فانا، برأى المتواضع، اعد نشوء دولتهم احدى معجزات التاريخ، التى لا يعرف لها نظير. لان المماليك فئة من الرقيق، من جنسيات مختلفة، وقوميات متعددة متباينة، سيطروا على بلاد عريقة في مجدها، وتاريخها من غير أن يكون لهم فيها جذور، لا من عشيرة، ولا من قبيلة، ولا من عصبة. وليست لغتهم الأصلية هي لغة البلاد، ولم يكن الدين الاسلامي، هو دين آباؤهم واجدادهم. اذا لم يكن بينهم جميعا من ابوه مسلم سوى (برقوق) وحده.

فلو غ دوتهم اوج العظمة يكاد يكون اعجوبة، وما اظن ذلك كان ممكنا، لولا التسامح العرفي، والمساواة التى فرض الاسلام على تابعيه: «ليس لعرفى على اعجمي فضل الا بالتقوى» كلكم آدم، وآدم من تراب. «ان اكرمكم عند الله اتقاكم». وقد استطاع هؤلاء المماليك ان يجعلوا من انفسهم طبقة محاربة عسكرية تمكنت من اقصاء الفرنج من سورية ومصر (١٩)، وصدوا الى الأبد تقدم المغول بقيادة هولاكو وتيمورلنك (٢٠) وقد دامت مدولة

المماليك من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥١١ للميلاد، في بلاد كانت هبة من الفن والاضطرابات، ولولا هؤلاء المماليك، لغير هولاء وليمورلتك وجه التاريخ. وقد تمكن هؤلاء الصغار - اى المماليك - ان ينقلوا مصر من الولايات التي احابت سورية والعراق. فتمتعت البلاد بثقافة خالية من الفجوات، وسياسة منظمة، لم تنعم بمثلها بلاد اسلامية خارج الجزيرة العربية. وهنا تكمن معجزة المماليك الكبرى. (٢١) واعجب من كل ما ذكرنا، ان المماليك استطاعوا - كل مدة حكمهم - ان يحافظوا على مميزاتهم العريقة. وعلى الرغم من انهم كانوا - بوجه عام - قساة ميالين الى سفك الدماء فانهم تأثروا بالفكر العرفي وروح الاسلام فخصصوا الفنون عامة والريازة خاصة أجل خدمة. (٢٢)

واعتوا بالفن عناية لانتقل عن الذى قامت به اية دولة متمدنة، الى ان جاء السلطان (سليم) الذى يلقبه الترك العثمانيون بـ (ياووز سلطان سليم) - اى السلطان (سليم) الشجاع. ففضى على دولتهم سنة ١٥١٧ للميلاد. ونقل الخلافة الى آل عثمان، وقد كانت (القاهرة) من اجمل الديار الاسلامية. (٢٣)

وقد تميز المماليك بأسلوب خاص في الحكم، فهم لم يتبعوا نظام الوراثة ماعدا (برقوق) الذى عين ابنه الثلاثة قبيل وفاته.

فكان حكم المماليك غريبا في كل شيء، ومن ابرز معجزات حكمهم ماقموا به من خدمة للفن الاسلامي، على امتلاء عصرهم بالحروب الرهيبة، والاضرابات الباهظة، والمجاعات، والفنن، والطاعون، والصراعات الأهلية التى سحقت الشعب بالفاشة، وما كان جوها يوحى بان هناك فنا يمكن ان ينمو ويتبرع، لكن، مع هذا كله، فان الريازة قد ارتفعت في البلاد التى سيطر عليها المماليك، بطراز ليس له شبيه في تاريخ مصر منذ ايام الفراعة والبطالة، فقد كان مايناه قلاوون والناصر والحسن وكلهم من المماليك البحرية - من مدارس ومساجد، وأضرحة مفعرة للريازة الاسلامية. ولم يكن ما انجز في عهد المماليك البرجية، بأقل روعة، مما تم في عهد المماليك البحرية.

إذ لم تر البلاد العربية من الأبنية مابلغ اتقانه حد الروعة، بعد الذى خلفه (برقوق) و (قالتباى) و (الغورى).

لاشك في ان اصول فن الريازة المملوكي، كانت متأثرة بالاصول السورية والعراقية،

ولاسيما بعد ان اصبحت مصر في القرن الثالث عشر الميلادي مأوى لنوى الفن،
واساطين الصناعة التازحين الى مصر من الديار العراقية والسورية قبل ان يجتاح المغول تلك
الديار.

وكان من افضل المماليك على العالم العربى، انهم يهيمهم الفرنجية، فتحوا الباب بلا
عائق، للحصول على حجارة البناء من مقالعها الشمالية، فخدموا فن الرهازة، لان القوم
اخذوا يبنون بالحجارة، بدلا من الآجر، الذى كان هو المادة الأساس في بناء المآذن، قبل
ذلك، وهكذا اتيح للبناءين أن يصلوا بالأبنية، الى درجة الكمال. ولاسيما بناء المساجد
المدرسية، المصلية الشكل.

فظهرت القباب الأنيقة، المزخرفة، وبرزت المباني ذات الخطوط الملونة، التى استعملت
فيها حجارة ذات ألوان مختلفة، في خطوط متساوية، متأثرة بالفن الرومى، والبيزنطى، ومن
ذلك (القصر الأبلق) (٢٤)

وقد امتاز فن الرهازة الاسلامى، في عصر المماليك، بفن الزخرفة الاسلامية، المشتملة
على الحروف الكوفية، والأشكال الهندسية، والصور الجوانية، ولحسن حظ الفن، وعلم
الآثار، والتاريخ، ان اجمل واحسن الأبنية، التى خلفها عصر المماليك، مازالت موجودة،
تراها عيانا، وفي زيارتها، امتاع للسياح، ولطلاب العلم.

نظام المماليك :

أما نظام المماليك، فقد كان ارق من نظام الحيشة، على كل ما اتصف به عصر
المماليك من قسوة، وحشونة حربية، فان المماليك هم الذين نظموا دولة الحيشة، ودليل
ذلك، ان (فخر الدولة) رسول المماليك البرجية - سنة ١٤١٢ هو الذى رتب دولة
الحيشة، وانشأ لها ديوانا، ونظم فرق الجباية بقوانين ضبطت سائر احوال بلادهم، ثم جعل
لملك الحيشة زيا يمتاز به من الناس، بعد ان كان هذا الملك، يظهر للناس عابدا، عاصبا
رأسه بعصابة خضراء. (٢٥) وقد علم المماليك البرجية الأحياس فنون الحرب، واستخدام
النفط الحارق في المعارك. (٢٦)

هنا، كان ملك الحيشة يختم المماليك ولاسيما (فلاوون) الذى كان يلقب بالملك

المنصور. الذي هزم جيوش الفرنج والمغول المتحالفة، في سهول (حمص) وفتح قلعة (المربط) وساق من فيها من فرسان القديس (يوحنا) محفوفين الى جهات (طرابلس) التي دكت قلعتها في شهر نيسان سنة ١٢٨٩ للميلاد. وقد ارخ انتصاره بتقوش ابقاها على جدران القلاع التي استولى عليها. (٢٧)

انحدار دولة المماليك البرجية واسبابه:

رأينا كيف نشأت دولة المماليك، وما حققت في القدس وضواحيها، وماجددت، وكيف تقيد سلاطينها بالعهود والمواثيق، وكيف تسامحو مع خصومهم، ومنحهم حرية العبادة، وكيف احترموا الأماكن المقدسة، وآلان نرى كيف تم انحدار هذه الدولة، بحكم التطور الذي يصيب الدول كما يصيب الأفراد. فكما يمر الفرد بمراحل، تمر الدول، بمراحل:

- أ) النشوء.
- ب) الشباب.
- ج) الاكتمال.
- د) فالشيخوخة.
- هـ) فالهرم.
- و) فالاحلال.

وهذا ما اصاب دولة المماليك البرجية، بعد انحلال دولة المماليك البحرية، وقد بدأ انحلال دولة المماليك البرجية، بتسلط الحجاب، اذ صار الحاجب يأخذ العزم من باب القاضى، ويتحكم فيه، ويأخذ ماله، دون أن يلومه أحد. (٢٨) وكانت اعظم اشارة لاحتفاظ هذه الدولة ماورد في المرجع نفسه. وقال مرجع آخر ماحرفه: «وصارت دولة المماليك، من اربل الناس، وأدناهم وأخسهم قدرا، وأشجعهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكلهم اعراضا عن الدين، وما فهم إلا من هو أزنى من فرد، والى من فأر، وافسد من ذئب، لا جرم ان تحريت ارض مصر والشام من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات يسوء اية الحكام، وشدة عيب الولاة، وسوء تصرف أولى الأمر، حتى انه ما من شهر الا ويظهر الخلل، العام، مالا يتدارك فرطه».

«حتى (بروقى) الذى يعتبر مؤسسا لدولة المماليك البرجية، المتميز بعقله وذكائه،

وألمعته انصرف في اخر ايامه الى جمع المال، من غير ان يهتم بالريعة، فانتشرت الرشوة، ولم يتمكن من مقاومتها، ومع كل دهائه، فانه كان يعتمد على سفلة الناس وحط ذوى البيوتات». (٢١)

وانتشرت الفوضى في زمن برفوق نفسه بعد أن هزم جيشه في معركة دمشق المعروفة بمعركة (الخمسة) في سنة ١٧٩١هـ (١٣٨٩م)، ودبت الفوضى في القاهرة حتى قيل: «إن الناس لم يستطيعوا ان يدفنوا موتاهم». (٢٢)

فلا عجب أن يكون ما ذكره سببا لانحدار هذه الدولة أدى فيما بعد الى زوالها، وقد أكمل المماليك الرجعية ما بدأ به المماليك البحرية من سفك الدماء، فكان عهدهم من أشد العهود اظلاما، وأعجب ما لي الأمر أنه، على كل هذه التناقضات التي كانت في سلوكهم، فانهم قد حافظوا على العهود والمواثيق، وجددوا شباب الاسلام، بخدمتهم للفن، والرياضة، وبناء المساجد والمدارس والأضرحة، وأعود فأقول إن معجزتهم الكبرى هي تقديمهم بالمواثيق والعهود التي منحوها الرهبان، وهم بقايا أعدائهم، فكان ذلك شهادة على أن أثر الاسلام فيهم كان عظيما.

المراجع

- ١- التوراة، طبعة اليسوعيين، بيروت، ١٩٣٧م.
- ٢- موسوعة القبايات المقدسة، جعفر الخليل، دار الفارق، بغداد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- ٣- القرآن الكريم.
- ٤- صحيح البخارى، ابو عبد الله البخارى، مصر، ١٣٠٤.
- ٥- الأنجيل، طبعة اليسوعيين، بيروت، ١٩٣٧م.
- ٦- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى، القاهرة، ١٩٤١م.
- ٧- تاريخ الأمم والملوك، الطبرى، مطبعة الاستقامة، القاهرة.
- ٨- الكامل لابن الأثير، مصر، وطبعة دار صادر، بيروت ١٣٠٢هـ.

- ٩- الوثيقة المحفوظة في دير الروم الأرثوذكس التي يدعى انها كتاب الأمان العمري، ١٥هـ.
- ١٠- مجموعة التوصيات والمواثيق، القدس .
- ١١- تاريخ العرب المطول، الدكتور فيليب حتى ورفقاؤه، دار الكشف، ١٩٦١م.
- ١٢- العرب واليهود في التاريخ، الدكتور احمد سوسة، دمشق، ١٩٧٥م.
- ١٣- حسن المحاضرة، السيوطي، القاهرة، ١٢٩٩هـ.
- ١٤- النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، ليدن، ١٨٥١ م .
- ١٥- حسن المناقب السريفة، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ١٦- الملك الطاهر بيبرس، عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ١٧- العبر والمبتدأ والحبر، ابن خلدون، بولاق، ١٢٨٤هـ .
- ١٨- المواعظ والاعتبار، المقرئ، القاهرة.
- ١٩- W.F. Al Brightat (Archaeology And the Religion of Israel, 1942, P 68.

وغربها من المعاجم والقواميس.

- (١) اليوسيون، عرب، وهم ملوك (القدس) وكانت (القدس) المسماة (يوس) عنوان حضارة، كانت تتحلل في عمارتها، وايضا الفلحة، واسباب معيشتها ورفاهية سكانها، وكان من ملوك (يوس) القديما، (سامة اليوس). موسوعة القليات المقدسة، الجزء الثاني، طبع دار المعارف - مطبع الخليل.
- (٢) رابع (سفر القضاة) الفصل التاسع عشر، من العدد ال ١١-١٣، قال الكوي لسلام الذي دعاه الى الميت في يوس مدينة اليوسين : ولا ليل الى مدينة عينا، ليس فيها احد من بني اسرائيل، لكن تتخطى الى جميع التورات سفر القضاة . الفصل التاسع عشر من العدد ال ١١ الى العدد ال ١٣.
- (٣) بوي الأستار (والروايت) الذي يعد في مقدمة من يبحث في تاريخ (فلسطين) ان تاريخ الكنعانيين - اليوسين - في (فلسطين) يرجع الى اوقات الألف الثالث قبل الميلاد، W.F. ALBRIGHT «ARCHAEOLOGY AND RELIGION OF ISPAE» 1942, P. 68 العرب واليهود في التاريخ ج ٢ ص ٦٢٥ الدكتور احمد سوسة الطبعة الرابعة منشورات العربي للاعلان والنشر والطباعة والترجمة دمشق، ص ب ٢٥٢١.
- (من الكتاب) سورة آل عمران الآية ٧٠.
- (٤) التحليل من الفصل الحادي والعشرون العدد ال ١٢ وما بعده.
- (٥) ابن خلدون ج ٥ الصفحة ال ٤٧٢ وابن تغري بردى ج ٦ قسم ٢.
- (٦) حسن المحاضرة ج ٢ الصفحة ال ١٨.
- (٧) تاريخ العرب المطول الصفحة ال ٨٥٥ .
- (٨) مجموعة العهود والمواثيق من الصفحة ال ١٨ - ٢٤ .

- (٩) ريقون كان في أول امره ريفاً لآباءه (الأشرف شعبان). جدول المماليك في الصفحة الـ ٧٩٤ من تاريخ العرب الطول
للكونكول فليب حتى المذكور انورد حرجي، والمذكور جوتليل جور، الصفحة الثالثة سنة ١٩٦١. وقد شاك (ريقون)
مساعد، وضرائح، وبلغ فن الزيارة في رتبة اسمي درجة. ومن مقاسم عصر ريقون، ان ابن خلدون كان قاضياً،
واساقاً في عهده.
- (١٠) نلاحظ ان هذا المرسوم يشير ان ان المماليك لم يخلصوا بمطالبهم الزهاني وخدمهم فسلمت مطالبهم الزهاني وغيرهم
من تعديت رجال السلطان، وغيرهم. وقد وقع اختيارنا على ثلاثة مراسيم لـ (ريقون) كل واحد منها يعنى (العربي).
- (١١) كان (حلمق) ممولوكاً لـ (ريقون) ثم زرق، حتى جلس على عرش السلطان، وكان يختلف عن (ريقون) بأنه شديد على
اعل الدعف شغف جمع الكتب الحسنة. (العربي).
- (١٢) كلمة اعصية معناها الخراس .
- (١٣) وهذا دليل قاطع بانى مطالبهم به العرب والمسلمون باسم الزهون عهدها باسم متعصبون، لآخرون لقبه الأديان
السلمية كرامياً.
- نرد ان ننه على الزهامة النبوية، لأنها معروفة.
- (١٤) هذا المرسوم من اعطى المراسيم والوثائق وكسب التوحيد، وفيه اشارة الى التوسعات والعهود والوثائق السابقة التي
صدرت قده، ووصية بلزوم احترامها، وينص من هذا الحثاق ان الحماية ليست قاصية على الزهاني، بل هي شاملة
للشجر والكلن يجهون لرباية القيامة والعلماني، وفيه رد على حاسم على كل منهم لغرب والمسلمين بالتعصب،
يؤكد على ان المماليك حافظين على روح الامان الذي منحه الفاروق لأهل القدس واحترام للوثائق السابقة، راجع
الصفحة الـ ٢٩٢ من مجموعة العهود والوثائق.
- (١٥) اعل السديفة وهي (VENISE, VENEZIA) مرفأ في ايطالية شمال الأديان، في قسم من المدينة على
جوانب النرع، وينقل الناس في هذه النرع بالزوارق. كان للسادة فيما مضى علاقات تجارية وثيقة مع اعل المشرق
(العربي).
- (١٦) زهان الخيل، وزهان الخيلة - هم زهان القدس فرانسيس، ويعرفون اليوم به (الفرنسيسكان) وقد سماوا زهان الخيل
لأسم يتلقون حرماً من الخيل على توسطهم (العربي).
- (١٧) هذا هو الاسم الذي كان يطلق على المكان الذي قامت فيه كنيسة القيامة، لأن ذلك المكان كانت تطرح فيه
القامعات قديماً.
- (١٨) البلاسية جمع بالاس عامة معاً الذي يتر أموال الناس يلاحق وفي محيط المحيط بلصه أحد ماله يؤ يدع عنده
شياء، راجع قاموس العادات والتبعات والزائد الأدبية للعربي .
- (١٩) تاريخ العرب الطول، الصفحة الـ ٧٩٢ .
- (٢٠) المربع نفس والصفحة عنها .
- (٢١) المربع نفس والصفحة عنها .
- (٢٢) الزيارة هي فن البناء .
- (٢٣) تاريخ العرب الطول ، الصفحة الـ ٧٩٢ .
- (٢٤) تاريخ العرب الطول الصفحة الـ ٨١٦ .
- (٢٥) قيام دولة المماليك الثانية، فيما نقله عن القزويني الصفحة الـ ١١٢ .
- (٢٦) الأمام باعتر من ارض الحسنة، الصفحة الـ ٤ وعنه نقل مؤلف دولة المماليك الثانية الصفحة الـ ١١٢ .
- (٢٧) تاريخ العرب الطول، الصفحة الـ ٧٧٨ .
- (٢٨) عن القزويني في الواظف والأعتراد ج ٢ ص ٢٤٠ / ٢٤١ وعنه نقل مؤلف قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١١٩ .
- (٢٩) الهجوم الزهاني في اخبار مصر والقاهرة لأن تعري يروي وهذا الكتاب مرتب على السنين . من الفتح العربي ان
زمان مؤلفه سنة ١٤٥٢ وقد طبع في (بيدن) سنة ١٨٥٥، وعنه نقل مؤلف قيام دولة المماليك الثانية في الصفحة الـ
٧٧ أما في الهجوم الزهاني، ففي الجزء الـ ١١ الصفحة الـ ٢٩١ .
- (٣٠) زهرة القوس والأديان، الورقة الـ ١٣١ .